AL-MA'RIFAH
Jurnal Budaya, Bahasa, dan Sastra Arab
(Journal of Arabic Culture, Language, and Literature)
Vol. 16, No. 1, April 2019, 38–49
P-ISSN: 1693-5764
E-ISSN: 2597-8551

دور اللغة العربية في العلاقات بين المغرب ودول إفريقيا جنوب الصحراء

Rabi Rusydi*
University of Muhammad al-Khamis, Rabat, Morocco

The Role of the Arabic Language in the Relations between Morocco and Sub-Saharan Africa

E-Mail Address
rabirusydi@gmail.com
***Corresponding Author**

Abstract
This paper examines the role of the Arabic language in the relations between Morocco and Sub-Saharan Africa by highlighting issues such as Sufism, which was decisive in the radiance of this language in these areas whose inhabitants were basically Christian or pagan. The Sunnī Sufism imposed on Africans the need to learn and master the Arabic language, which will later be used to write the African history which has long been oral. Moroccans have played a decisive role in this regard by transmitting the literary experience since the conquest of Western Sudan by Aḥmad al-Manṣūr al-Dhahabī in 1591. Therefore, the Arabic language has increased the consolidation of bilateral relations through the cultural exchange during certain historical periods as well as through student envoys and religious disciples. These relations are evident today and developed to reach the economic and political levels by virtue of the Arabic language, the Mālikī doctrine, and the Tijānī Sufism.

Keywords
Sub-Saharan Africa;
Arab culture;
African literature;
Arabic language

المقدمة

لعبت اللغة العربية دورا كبيرا في أسلمة جزء كبير من دول إفريقيا جنوب الصحراء، واشعاع الثقافة العربية فيها، كما أن التصوف والمذهب المالكي والعقيدة الأشعرية اكتسحت هذه البقاع واضطرت ساكنها إلى فهم واتقان هذه اللغة لاستيعاب فحوى ومضامين العقيدة والشريعة الإسلاميتين، ومن خلال مسح طبوغرافي للمجال المدروس يتضح انتشار الكثير من الطرق الصوفية كالتجانية والحموية والفاضلية كما أن المريدين الأوائل الذين نشروها لم يتمكنوا من ذلك إلا بعد دراسة اللغة العربية والانفتاح على أصولها لغة ونحوا، وهو ما مكنهم لاحقا من كتابة تاريخهم الذي كانت تطغى عليه ثقافة المشافهة المرتبطة بطبائعهم البدوية، والملاحظ أن اتصال العرب بإفريقيا جنوب الصحراء حدث منذ أقدم العهود، فاليمن القديمة وصل نفوذها السياسي إلى القرن الإفريقي والحبشة، كما كانت علاقة غرب إفريقيا بشمالها قديمة، ونظرا لأن إفريقيا تأسست بها دول وممالك ذات جذور عربية إسلامية، فقد كان لذلك دور كبير في تطور

Available online at
http://journal.unj.ac.id/unj/index.php/jba/index
DOI: https://doi.org/10.21009/almakrifah.16.01.05

Copyright © 2019 The author
This article is distributed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License

اللغات الإفريقية كلغات هجينة عربية، وقد لعب في هذا أيضا دور التصاهر بين العرب والأفارقة، أضف إلى ذلك الدور الحاسم للعلاقات التّجارية التي كانت وسيطا بين الدول العربية ونظيرتها الوثنية.

يعتبر ميلاد الإسلام، وتطوّر الحضارة المرتبطة به نقطة تحول حاسمة أعادت إلى الحساب ماضي التّأثير العربي لغة وثقافة؛ ليصل العمق الإفريقي وأقاصي الغرب منه. وعلى هذا الأساس فاللّغة العربية لم تكن مجهولة عند الأفارقة، وإن كان معظمهم لا يتقنونها، ولكنّها كانت فقط مجرد لغة للتّفاهم مثل اللغات الأخرى. غير أن ظهور الاسلام باللسان العربي انتقل بهذه اللغة من مجرد لغة للحديث إلى لغة مقدسة. ونتيجة لذلك، تأثرت العديد من اللغات العالمية باللغة العربية، وكان من بينها اللغات الإفريقية بصفة عامة. ويعتبر التصوف والفقه العنصران الأساسيان اللذان أشاعا الثقافة العربية في هذه البقاع وبخاصة التصوف التجاني السني الذي وجد إقبالا لم يعهد له نظيرا مقارنة مع الطرق الصوفية الأخرى. تحاول هذه الدراسة البحثية الإجابة عن عدة أسئلة محورية منها على سبيل المثال لا الحصر؛ كيف ساهمت اللغة العربية في توطيد العلاقات بين المغرب ودول إفريقيا جنوب الصحراء؟ ماهو دور المغاربة المسلمون في أسلمة إفريقيا جنوب الصحراء؟ وكيف ساهموا في نشر اللغة العربية على نطاق واسع من خلال كتب التصوف والمذهب المالكي؟ وكيف مكنت اللغة العربية من كتابة تاريخ دول افريقيا جنوب الصحراء؟

اللغة العربية في دول إفريقيا جنوب الصحراء الواقع والمآل

شهدت اللغة العربية تراجعاً ملحوظاً على الصعيد الأفريقي وبخاصة في أعقاب قدوم الاستعمار الأوربي وتوغله في الأراضي الأفريقية وما صاحبه من فرض ونشر للغات المستعمر خاصة اللغتين الفرنسية والانجليزية على حساب اللغة العربية، ومحاربة لنفوذ وتفوق وانتشارها على الساحة الأفريقية، وبالرغم من كون اللغة العربية في غرب أفريقيا قد تمتعت بمكانة متميزة على الخريطة اللغوية لأفريقيا؛ حيث استقرت في غالبية أنحاء القارة منذ وقت طويل سبق دخول أي لغة من اللغات الأوربية إلى القارة السمراء، وتحدّث بها عدد كبير من الأفارقة وانتشرت بينهم انتشاراً كبيرا إلا أن انتشار اللغة العربية بهذا المعنى في أفريقيا مرتبط بانتشار الإسلام فيها. وعند الحديث عن تاريخ القارة لابد من التمييز فيه بين المصادر العربية والغربية، إذ كل مصدر له وجهة نظر في الموضوع، فالمصادر الكبرى هي العربية. فتوالى الكلام عن انتشار الإسلام والعربية انطلاقا من طوالع الفتح الأول من مملكة غانا التي دخلت إلى الإسلام عن طريق تجار العرب الوافدين إليها، ثم إن الجانب الصوفي أدى إلى انتشار اللغة العربية في القارة السمراء بشكل سريع، لكن استقرار الاستعمار في المنطقة أدى الى انحسار هذه اللغة واللغات المحلية بشكل كبير.

من جهة أخرى ساهم وجود كتاتيب ومدارس قرآنية في نشر اللغة العربية وثقافتها على نطاق أوسع، وقد كان الاهتمام بها باكرا والتي يعود تاريخها إلى أربعينيات القرن الماضي إضافة إلى إنشاء (مدرسة دار الحديث في الستينيات، ومدرسة الثقافة الإسلامية ... وبعد مجيء المستعمر الفرنسي، ركز اهتمامه

على استقطاب أبناء بعض الأهالي وتعليمهم ثم بعثهم إلى الدول الأوربية، والذين يعود لهم الفضل في النداء بفكرة الاستقلال التي أسسوا لأجلها جمعيات لتحقيقها. ومع الجيل الجديد، نشأت فكرة تدعو إلى دمج العربية في المدارس الحكومية ومازال الأمر بين أخد ورد، ولعل السبب الرئيسي من وراء ذلك هو الاسلام.

بعد استعراض المراحل التي قطعتها العربية بعد الاستقلال، اعترفت بعض الحكومات الافريقيه وعلى سبيل المثال لا الحصر الحكومة الإيفوارية التي نادت في السنتين الأخيرتين بمئات المدارس العربية الإسلامية، ومنذ الستينات إلى اليوم، أنتجت هذه الجهود جامعات ومعاهد تمكّن الدارسين بالعربية من أبناء الدولة متابعة دراساتهم العليا ببلدهم، إلا أنه يبقى التحدي الكبير هو الثنائية اللغوية بين العربية والفرنسية في المدارس الحكومية، إذ أن المراحل التي قبلت من طرف الحكومة هي المراحل الابتدائية.

بالحديث عن تاريخ دخول العربية إلى افريقيا جنوب الصحراء، فإننا سنجد أنفسنا أمام مراحل نستعين بمثال عن ذلك هو (نموذج نيجيريا)

١. عصر الاستهلال: بعد ١٠٠٠ إلى ١٣٠٠ : كانت العربية لم ترق إلى مستوى التأريخ في نيجيريا.
٢. عصر الدعاة الوافدين: اللغة العربية ارتقت نسبيا، حتى أن المناظرة كانت في المنطق.
٣. عصر الفودي (عثمان الفولاني): بلغت فيه ازدهارا ملحوظا، وكانت تعتمد في الكتابات الرسمية، وقد كوّن عثمان الفودي دولة إسلامية في هذا العصر ـ ثم كثرت التآليف بالعربية.
٤. عصر الاحتلال البريطاني: كرّس فيه المستعمر جهوده لطمس العربية.
٥. عصر الاستقلال: انقسم المجتمع فيه إلى اتجاهات، وكان كل فريق يسعى إلى تطوير اتجاهه، ولحل هذه المشكلة سعى العلماء إلى تأسيس المدارس والسعي إلى تعريب الألسنة.
٦. عصر الازدهار: عصر نمو تمثل في وجود وسائط وأدوات تطويرية جعلت العربية ترتقي، باعتماد آليات متنوعة.

العربية لا زالت تعاني من إقصاء على حساب اللغات الأخرى

الملاحظ أن ساكنة افريقيا جنوب الصحراء بكل أطيافها وفئاتها تشبّثوا باللغة العربية واعتزوا بها، بل تغنوا بها من خلال نظمهم لأبيات شعرية مضامينها هجينة بين اللغة الأم واللغة العربية، ونفس الشيء ينطبق على موريطانيا حيث أن عامل الإسلام، والانتماء المذهبي إلى المالكية ساهما في ترسيخ اللغة العربية وثقافتها مما حدا بهذه الدولة ان تلعب دور الوسيط بين المغرب ودول افريقيا السوداء لنقل الثقافة العربية ـ ورغم أن ترسيم هذه اللغة وقع في وقت عسير، سنوات الأربعينيات بعدما فتحت فرنسا حق الإسهام في القرار، دافع الممثل عن ترسيم اللغة العربية، والمطلوب هو أن ينأوا عن التوظيف الإيديولوجي الذي يعتبر تحديا، والتحدي الآخر هو بقاء الإدارة الفرنسية رغم ترسيم اللغة العربية، ثم وطأة العولمة ومسار التنميط الكوني في غياب أي سياسة تنافس وتدعم العربية ، وآخر التحديات هو انسداد الأفق التنموي الذي أفشل التعرب في غرب إفريقيا.

نتائج البحث والمناقشة

أ. العلماء المغاربة ودورهم في إشعاع اللغة العربية وثقافتها وكتابة التاريخ المحلي للسودان الغربي

لقد انتشر الإسلام ومعه اللغة العربية في دول افريقيا جنوب الصحراء في بيآت شعبية حضرت فيها الثقافة المسيحية بشكل قوي، والملاحظ حسب أحد الباحثين أن الإسلام انتشر بكل يسر وبشكل طوعي لمشيئة الله. وحسب إحصائيات ١٩٤٦ فإن مجموع المسلمون مقارنة بالمسيحين والوثنيين شهد ارتفاعا كبيرا، (٩٠ بالمائة في النيجير، و٨٥ بالمائة في السينغال، وفي غينيا ما يناهز٨٠ بالمائة، وفي مالي والفولتا العليا ٦٠ بالمائة، وفي نيجيريا ما يزيد عن على ٤٥ بالمائة، وفي الكوديفوار حوالي١٥ بالمائة، وفي الدَّاهومي ما ينيف على ٧ بالمائة، وفي غامبيا أكثر من ٢٥ بالمائة وفي غانا اكثر من الثلث. لابد من الإشارة إلى أن السودان الغربي ظل خاضعا للسيادة المغربية منذ حملة أحمد المنصور الذهبي (١٥٩١ م) إلى حدود القرن التاسع عشر رغم ما اعتراه من ضعف واضح وما يشهد على علاقة الولاء بين الدولة المغربية وهذه البقاع رسائل شيخ تمبكتو ومبعوثيهم إلى السلطان المغربي الحسن الأول في موضوع طلب النجدة ضد المستعمر الفرنسي (al-Azmī, 2001, p. 44). ولعل هذا يبرر الوحدة العضوية بين المغرب ودول إفريقيا جنوب الصحراء والتي وتمتد جذورها من البحر الأبيض المتوسط إلى نهر السينغال والمتمثلة في وحدة ساكنته الدينية واللغوية والعرقية والمذهبية. والجذير بالذكر أن عدة علماء شدوا الرحال إلى جامع القرويين بفاس لتلقي العلم ومقابلة العلماء أو لركب الحجيج الذي كان يمر بمراكش وسجلماسة (al-Manūnī, 1973, p. 39).

لقد نتج عن هذا التلاقح المعرفي بين المغرب ودول إفريقيا جنوب الصحراء انتاجات أدبية باللسان العربي ونخص منها بالذكر:

١. كتاب فتح الشكور في معرفة اعيان علماء التكرور لمحمد البرتلي الولاتي (١٩٨١)
٢. بلاد شنقيط للخليل النحوي.
٣. ضالة الاديب لسيدي بن عبد الله بن سيدي محمد الصغير بن أنبوجة التيشتي (١٩٩٦)
٤. روض شمائل اهل الحقيقة لابن حم

من خلال الأدوار الطلائعية التي لعبها المثقفون المغاربة في السودان الغربي لترسيخ اللغة العربية، ظهر جيل جديد من أبناء المنطقة شرعوا في تدوين تاريخهم باللسان العربي سيما وأنه جرت العادة أن يظل تاريخ المنطقة شفهيا لأمد بعيد وهوما كان يطرح مشكلا في حفظ الذاكرة الجماعية، والملاحظ من خلال فحص مضان هذه الكتب العربية أنه تمت قصور على مستوى المكان في المتون السودانية (al-Shukrī, 1999, p. 305).

تمكن أهل السودان من اللغة العربية فأول ما شرعوا فيه تدوين تاريخهم باللسان العربي، والملاحظ أن المدونين انشغلوا بمسألة التدوين أكثر من ضبط اللغة على مستوى النحو وما يليه؛ وكمثال عن ذلك اكتفاء أسرت كَعْتْ، وعبد الرحمان السعدي، وصاحب "تذكرة النسيان" ومولاي قاسم بالتركيز على منطقة

الحوض الأوسط لنهر النيجير دون غيرها من أقاليم السودان الغربي (al-Shukrī, 1999, p. 305). لقد لعب المغاربة وبخاصة الفقهاء منهم دورا محوريا في تلقين، من سيصبحون مؤرخين للمنطقة، دروسا في اللغة العربية وعلومها، فهذا المغيلي، الفقيه المغربي، ذو الصيت الذائع في ربوع المغرب سيصبح مصدرا ثمينا لمحمود كعت، الجد مؤلف تاريخ الفتاش، أهم مصدر عربي يؤرخ لبلاد السودان الغربي.

نعود الآن إلى عيوب الكتابة العربية التي اعترت النصوص لدى مؤلفي أقاليم السودان الغربي؛ والملاحظ، وكما ذهب إلى ذلك المغربي المختص في الدراسات الإفريقية الأستاذ احمد الشكري، أن هذه الكتابات تعتريها هَنَّاتْ على مستو الشكل والمضمون، من قبيل مدى جرأة أصحابها على التأليف واعتمادهم على الإختزال و اشتهار بعضهم بالانتحال، وإغفالهم للبعد الزمكاني في ما يخص الرواية التاريخية.

نأخذ كمثال عن ذلك مستوى الجرأة على التأليف يرى أحمد الشكري أنها كانت مفتقدة في جميع الحقول المعرفية التي كانت متداولة وقتئذ سيما وأن المدون يحتاج دائما إلى من يدفعه دفعا للكتابة، من قبيل أصدقائه أو أقربائه أو تأليفه تحت الطلب (جرت العادة ان يكتب المؤلف تحت الطلب منذ العصر الاموي وتعززت هذه الظاهرة خلال فترة الازدهار في الفترة العباسية) بأمر من أمير أو سلطان، مما يعني أن جل المؤلفات العربية التي كتبها غير الناطقين بهذه اللغة في أقاليم السودان الغربي إما جاءت تحت الطلب ولم يكن الدافع إليها رغبة شخصية في التأليف (al-Shukrī, 2010). ومهما قيل عن دوافع الكتابة باللغة العربية فإن المقصود من أجل هذه المهمة إنما تتوفر في شروطها وتمكنه من الصنف المعرفي المراد التأليف فيه، أو باعتباره من الراسخين في العلم. غير أن هذه الصفات لا نجد لها آثار بادية حينما يتعلق الأمر بالمؤلفين الأفارقة سيما وأن المشهد الثقافي لهذا المجال الجغرافي كان أكثر تواضعا، والمتمكنون من الحقول المعرفية في الثقافة العربية الإسلامية مفقودون اللَّهُمَ إذا تعلق الأمر بالنزر القليل، ولعل السبب في ذلك طغيان الثقافة الشفهية مما يحجب عنا في بعض الأحيان معرفة أصحاب بعض المؤلفات التي ظل بعضها مجهول المصدر إلى يومنا هذا، مما يصعب معه تحقيق سيرة المؤلفين السودان (al-Shukrī, 1999, p. 305). والراجح أن هذه العادة السيئة تم التراجع عنها من قبل المدونين السودان مما يشير إلى تغير جذري في نمط حياتهم المعيشية وبالتالي تغير الطابع الاجتماعي للمعرفة، وحسب محمد القاضي فإن المجتمع العربي الإسلامي شهد نفس التحول إذ ارتبط الانتقال من حالة المشافهة إلى وضعية التدوين بانتقال المجتمع العربي من حالة البداوة إلى حالة التمدن.

تمت نماذج بعينها تشكل حالة الاستثناء من هذه الوضعية الشاذة وهو نموذج أحمد بابا التمبوكتي. فأسلوبه في الإنتاج الأدبي العربي مطبوع بالنزعة النرجسية التي عهدناها لدى المؤلفين العرب، وما يؤكد ذلك أن نخبة من المغارة اخذوا عنه من فقهاء وقضاة ومتصوفة (al-Shukrī, 1999, p. 273). خلال إقامته بالمغرب، وبعضهم أكبر منه سنا. ولعل هذا النموذج المثقف هو من الحالات النادرة التي دفعت البعض لتقديم شهادتهم إزاءه فصاحب الرسالة الغلاوية (محمد النابغة بن عمر الغلاوي، ت ١٨٦٨) وصفه بصقر العلماء لتمكنه وسعة علمه كما أنه اشتهر في أوساط النخبة بالفتاوي التي كان يصدرها انطلاقا من المغرب

أو مصر. وماعدا ذلك فجل الكتابات السودانية جاءت مخلة بشروط التأليف التي عهدت على العرب بمن فيهم المغاربةن ومنها عدم قدرتهم على التصنيف (المقدمة – الأبواب – الفصول – الخاتمة) كما ان متونها تفتقد لأدوات الترقيم والعناوين الفرعية وهو ما كان يطرح مشاكل جمة بالنسبة لمحققي النصوص المخطوطة.

وعلى المستوى اللغوي فالملاحظ أن المؤلفين الأفارقة السود يدبجون نصوصهم بعبارات دارجة متداولة في بيئتهم بل أننا نجدها حتى على مستوى عناوين الكتب، وعلى مستوى النحو والإعراب أو الرسم فالمؤلفون لا يحترمون القواعد المؤصلة للغة العربية ف "ال" التعريف يمكن أن تسقط أو تضاف بحسب صوت أو نظر اللغات المحلية كما أن تأنيث المذكر أو العكس مما جرى به أعمل في هذه البيئة. كما يلاحظ من خلال فحص هذه المتون تداخل وخلط بين المعلومات حيث جرت العادة باستعمال التنبيهات، والفوائد، والتتمات، أو الذيل (al-Shukrī, 1999, p. 273).

ب. دور التصوف المغربي السني في تطور اللغة العربية ببعض دول إفريقيا جنوب الصحراء

انتشرت الطرق الصوفية والزوايا المرتبطة بها في كل أنحاء إفريقيا بكل قبائلها وحواضرها و مداشرها، وعلى سبيل المثال لا الحصر كانت الزوايا تملأ أحياء السينغال (Trincaz, 1981). كما هو الحال بالنسبة لمدينة فاس المغربية. وقد سجل التصوف حضورا قويا بأفريقيا خاصة وأنه سعى إلى القضاء على التطرف والعادات التي كانت تسيء لكرامة الإنسان وهو ما دفع "فنسان مونتاني" إلى القول "لولا المتصوف لكانت جماعة الوُولوف من القتلة. وقد لعب المغرب دور الوسيط في نقل الثقافة العربية والإسلامية إلى دول إفريقيا جنوب الصحراء، حيث انتشرت على نطاق واسع مؤلفات متصوفة مغاربة أفذاذ انتشرت مجموعة من الكتب التي حفزت الأفارقة على تعلم اللغة العربية الفصيحة ومنها على يبيل المثال لا الحصر: حكم بن عطاء الله بشرح زروق الفاسي، عدة المريد، كتاب التشوف إلى رجال التصوف، مخمسات العشرينات، كتاب المدارك، المدخل إلى تنمية الأعمال لابن الحاج، دلائل الخيرات الأكثر تداولا في ساحل العاج حسب ما ذكره الرحالة بول مارتي (Marty, 1922). وقد اعتمدت هذه الكتب كإطار مرجعي للدراسة والتكوين باعتبارها تندرج ضمن البرنامج التعليمي العام على الرغم من الانتقادات التي وجهت إليه باعتبارها تنشر البدع في الأوساط الافريقية إلا أن الراجع، وهذا رأي العموم، كون هذه الكتب ساهمت وبشكل كبير في نشر الإسلام والثقافة العربية على نطاق أوسع. و قبل الانتقال إلى رصد دور إحدى هذه الطرق، من خلال نموذج الطريقة التجانية، في نشر الإسلام والثقافة العربية بدول إفريقيا جنوب الصحراء لابأس أن نعرج على أهم الطرق التي ساهمت هي الأخرى في هذا الإجراء ومنها:

١. الطريقة القادرية

هي من أقدم الطرق الصوفية بدول إفريقيا جنوب الصحراء، قبل أن تحتل مكانتها الطريقة التجانية، وتنتسب إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي عاش خلال القرن الثالث عشر الميلادي، وقد وصلت طريقته

إلى إفريقيا جنوب الصحراء خلال القرن الخامس عشر الميلادي بفضل الدور الرائد الذي قام به الشيخ "أحمد البكاي" الكنتي بالصحراء الكبرى بفضل مريديه وفقهاء المنطقة الذين كان لهم الفضل في نشر الطريقة على نطاق واسع بلغ حدود السنغال ومالي و النيجر؛ ومن جملة هؤلاء نجد "محمد بن عبد الكريم المغيلي" شيخ أحمد البكاي بن محمد الكنتي المعروف برحلاته الصوفية ذات المنافع التجارية والدينية.

يمكن الحديث عن ثلاثة فروع للطريقة القادرية بدول إفريقيا جنوب الصحراء ويتعلق الأمر بالطريقة القادرية الكنتية نسبة إلى الشيخ بوكنتة، والطريقة البَكَّائية نسبة لمؤسسها الشيخ سِيدِيًّا، والطريقة الفَاضِلِّية التي تعود للشيخ سَعْدْبُوهْ. بالعودة إلى الخريطة الجغرافية للطريقة القادرية بإفريقيا جنوب الصحراء يتضح أن هذه الطريقة انتشرت على نطاق أوسع (نصف مليون قادري بالسينغال، أما في مالي فقد انتشر القادريون في الحواضر الإدارية) وبالعودة على رواية بول مارتي سنجد أن القادريين انتشروا على طول نهر النيجر ونفس الشيء ينطبق على الكاميرون وأحوازها.

٢. دور الطريقة التجانية في نشر الإسلام العالم والثقافة العربية في دول إفريقيا جنوب الصحراء

ليس من باب الصدفة القول أن الطريقة التجانية انتشرت في صفوف أعيان المجتمع المغربي لولا ارتكازها على المذهب المالكي، الذي تميزت مضامينه بالاعتدال والوسطية، ولعل هذه السمة ساعدت التجانيين في بدايتهم الأولى على مواجهة الخصوم؛ من خلال ترجيح كفة الوسطية على "التطرف"، لنشر تعاليم الدين الإسلامي السمحة. لكن الدارس لمتون التجانية سيتوصل لا محالة إلى كون هذه الطريقة قد تمكن أصحابها من علوم الظاهر (العلوم المتصلة بالقرآن والحديث) وعلم الباطن الذي لا يأتيه الله إلا لمن يشاء، وبناء عليه فأدوات الحجاج والمناظرة والسجال الفكري الذي اعتمدها التجانيون المغاربة والأفارقة بالخصوص كانت تفيد تمكنهم من هذه العلوم قبل أن يستوعبوا الباطن، وهو ما تبينه كتاباتهم ومراسلاتهم الإخوانية وأجوبتهم (لم يكن بوسع التجانين اقناع مريديهم بمقولات الطريقة التجانية وكرامات مؤسسها سيدي أحمد التجاني لولا اعتمادهم في اجوبتهم ادلة دامغة عمادها ما تضمنته كتب الفقه المالكي وبخاصة الموطأ والمعيار .... فقد تمكن مثلا أبي عبد الله محمد اكنسوس من خلال الأجوبة التي قدمها لمريده أبو الحسن علي بن الطيفور السامكوني، المسماة بـ "الأجوبة الزنجفورية في الأسئلة الطيفورية" من نشر طريقته على نطاق واسع في دول إفريقيا جنوب الصحراء وبنشره لهذه الطريقة انتشرت معها الثقافة واللغة العربية وقواعدها) بل وحتى بعض العقود التجارية وفتاويهم التي حررها تجانيون يعتبر الحاج الحسين الإفراني (هو قطب الطريقة التجانية بالجنوب المغربي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعشرية الأولى من القرن العشرين. لعب دورا كبيرا في تثبيت دعائم هذه الطريقة في ما وراء نهر السينغال من خلال ربطه لعلاقات رفيعة المستوى مع نخبة دول إفريقيا (توجد مراسلاته في إحدى خزانات مالي والسينغال) (ت ١٩١٠)، الذي كان قاضيا ونوازليا بسوس الأقصى (يقع جنوب المغرب ويفرق بينه وبين سوس الأدنى وادي وْلْغاس (وادي ماسة) واحدا منهم. ولقد كان سيدي أحمد التجاني مؤسس الطريقة التجانية واحدا من الذين صدوا باب المواجهة والسجال الفكريين نظرا لمكانته العلمية

التي أصبح يتبوأها بها بعد ترجيح كفته على غريمه الفقيه الطيب بن كيران وذلك في إحدى جلسات المجلس العلمي السلطاني الذي كان يترأسه المولى سليمان (١٧٩٢، ١٨٢٢) بمناسبة تفسيرهما لسورة الناس، ولا مراء من كون المغرب كان له الفضل الكبير في إيصال الطريقة التجانية إلى بلاد السودان الغربي بواسطة قناة اللغة العربية؛ فالأفارقة جنوب صحراويين يعتبرون فاس (مدينة مغربية أسسها الادريس الأول وتعتبر العاصمة العلمية للمغرب منذ تأسيها إلى اليوم وتوجد بها اعرق الجامعات الإسلامية يتعلق الامر بجامع القرويين الذي بنته فاطمة الفهرية خلال فترة يحي بن ادريس الثاني) محجهم الأول قبل مكة، إن التجانيين حاولوا تكييف مضامين النص المالكي بشكل يتلاءم وظروف المرحلة التي عاشوها، وهو ما ينطبق بشكل تام على عمل التجانيين الأفارقة في مواجهة أشد خصم لهم وهم الحَمَوِيِّينْ (al-Azmī, 2001, p. 153)

إن حركة الطريقة التجانية ببلاد السودان الغربي لا تختلف عن نظيرتها بالمغرب فمريدي هذه الطريقة الذين كانوا منخرطين سابقا في الفاضلية والحموية لم ينسلخوا عنهما إلا بعدما بذل الشيوخ الأوائل جهدا كبيرا في سبيل إقناع المريدين الجدد. لهذا نجد الحاج عمر الفوتي، الذي في عهده وصفت السينغال بالدولة التجانية، يفسر بأدوات عقلية وأخرى نقلية لا تخرج عن ما جاء بين دفتي الموطأ وغيره من كتب المالكية وذلك من أجل إقناع مريديه بفضل الطريقة وصلاح شيخها سيدي أحمد التجاني وأحقيته على باقي الأولياء ومن تم التسليم بمقولاته التي تذهب إلى حد أقول بختمية طريقته للطرق و ختميته للأولياء.

ج. الحركة الثقافية بين علماء المغرب والسودان الغربي ودور الطريقة التجانية و المذهب المالكي في تنشيطها

لعبت الجغرافية والتاريخ دورا مهما في نسج علاقة التقارب والصلة العلمية والروحية بين علماء المغرب والسودان الغربي، ومعلوم أن هذه العلاقة تركزت بالأساس في حواضر مناطق التماس بين المنطقتين، فأشاعت نوعا من التفاعل التاريخي بين هؤلاء العلماء، ومنذ العصر المرابطي استطاعا "يحي بن إبراهيم الكدالي" و"أبي عمران الفاسي" محو البدعة في بلدان السودان الغربي ووحدها بمذهب سني موحد. ومهما قيل عن هذه المرحلة إلا أن الصلة تجسدت بشكل كبير بعد الصراع المرابطي الموحدي وبالخصوص أثناء هجرة العلماء المرابطين نحوى الجنوب المغربي وانتعاش الحركة الثقافية في الفترة المرينية والسعدية ومع ذلك فندرة المصادر والوثائق المحلية يجعل هذه الفترة يكتنفها نوع من اللبس والغموض مقارنة مع مرحلة حكم العلويين الذين ازدهرت في عهدهم الحركة الثقافية العربية من خلال الفتاوى المرفوعة لدائرة العلماء، ومن خلال أجوبتهم يتضح مدى تمكن هؤلاء من مصادر المذهب المالكي واللغة العربية الفصيحة، هذا بالإضافة إلى الأخذ والعطاء المباشر، وحضور المؤلفات المغربية المالكية في مجال السودان الغربي.

١. أسلمة بلاد السودان الغربي ودور الطريقة التجانية والمذهب المالكي في ذلك

تزامنت الصحوة الثقافية لبلاد السودان الغربي مع حدث انهيار الحضارة الإسلامية العربية، وهو ما انعكس سلبا على الوضع الثقافي بهذه البقاع بشكل سلبي. حيث وجدت صعوبات جمة منعت من الانتقال من مرحلة الإنتاج الثقافي الشفهي إلى مرحلة التدوين والتأليف (al-ʻAlawī, 1999). وهذا يعزى إلى عدة عوامل لعل أهمها الانتشار السلس للإسلام دون قتال، عكس ما حدث مع تجربة شمال إفريقيا زمن الدولة الأموية، والتي تلاها زخم كبير من المؤلفات حول تاريخ الإسلام ومنها ما أنجزه المسعودي والطبري واليعقوبي وابن هشام، فالدولة ومن خلال مؤسساتها التشريعية والقانونية تنعكس أحكامها على الأوضاع الثقافية لبلد ما وهو مالم يحدث ببلاد السودان الغربي. وبالنسبة لحالة السودان فمعلوماتنا عن الذين نشروا الإسلام تكاد تكون منعدمة على الأقل إلى حدود نهاية القرن السادس عشر الميلادي. وبالمقابل فالعمليات العسكرية التي قادها جهاديون أفارقة كما هو الحال بالنسبة لأَسْكَيا محمد (١٤٩٣ – ١٥٢٨) وإدريس ألوما (١٥٦٤ – ١٥٩٦)، والراجح أن السلاطين الذين قادوا عمليات الجهاد كان هدفهم بسط سيطرتهم على تجارة الرقيق والذهب ولم تكن تحركاتهم تروم إلى نشر الإسلام عبر قنوات كالفقهاء وشيوخ الزوايا والأئمة والوعاظ، بل أن أقصى ما فعلوه هو إجبار القبائل الوثنية على أداء القسم بالقرآن كمؤشر لتحولهم من وثنيين إلى مسلمين (al-Shukrī, 1999, p. 240).

ومهما قيل عن هذه الفترة إلا أنه يبدو أن الدولة لم تتعاطى مع الإسلام كدين سيوحد قبائل السودان الغربي إلا بعد انهيار الإمبراطوريات ما بعد القرن ١٦، حيث أن الفترة الحديثة والمعاصرة شهدت بناء أَنْوِيَة المراكز الدينية لترسيخ الثقافة الإسلامية سيما مع الشيخ عثمان بن فودي (ت. ١٨١٧) أو مع الشيخ محمد الأمين الكانامي (ت. ١٨٣٧). من جهة أخرى فثقافة المدارس العتيقة التي تعود جذورها إلى منتصف القرن ١٣ ميلادي لم يكتب لها الوجود بالسودان الغربي على اعتبار أن المسجد كانت بمحاذاته الكتاتيب القرآنية، كما أن ضعف عملية التعريب وغلاء الورق زادا من استفحال أمر التدوين والتأليف باللسان العربي مما حال دون انتشار الثقافة العالمة العربية بشكل كبير. إن الوضع الذي ظل عليه انتشار الإسلام يقربنا منه الرحالة الذين زاروا المنطقة وفي مقدمتهم ابن بطوطة الرحالة المغربي؛ ففي كتابه "تحفة النظار" يقدم الرجل شهادته حول تصور الأفارقة للإسلام بشكل يتنافى ومبادئ الشريعة الإسلامية إذ ظل الخلط سائدا بين الدين الإسلامي والتقاليد والعادات التي توارثها أبناء المنطقة أبا عن جد. كما أن ضيق المجال الحضري وانهيار طرق التجارة الصحراوية وأخيرا هناك عامل كان حاسما لصالح تدني المستوى الثقافي لبلدان السودان الغربي، ففي الوقت الذي استرجعت فيه هذه البلدان أنفاسها لتعلن نخبها بداية التمرس في عملية التأليف والتدوين تراجع المستوى الثقافي والحضاري للمغارب بفعل التغلغل الإيبيري مما انعكس سلبا على عملية التبادل الثقافي بين هذين القطرين بشكل وصل إلى حد القطيعة.

ومع نهاية القرن الثامن عشر الميلادي لوحظت متغيرات جديدة كانت في صالح الحركة الثقافية نتيجة تضافر عدة عوامل منها ما هو ديني - اقتصادي وما ترتب عنهما من تغيير للبنى الاجتماعية والسياسية، ويمكن إجمال هذه التغيرات في الضغط الذي مارسه الإيبيريون لتقويض تجارة الرقيق والذهب، وانهيار

الدول السودانية المركزية مما ساهم في تلاشي أنظمة الحكم القوية والتي عمرت لعدة قرون هذا بالإضافة إلى تراجع دور المدن وهو ما سيؤثر على الفعالية الثقافية التي انتقلت بوزنها إلى أرياف المدن، وخلال هذه الفترة عرفت بلدان السودان الغربي ميلاد ما يسمى بالإسلام الشعبي البعيد كل البعد عن نظيره الإسلام العالم؛ هذا التحول كان له دور في إيقاظ الحركات الدعوية ذات البعد الإصلاحي.

٢. الإسلام الشعبي وتراجع الإسلام العالم من خلال نموذج الطريق التجانية

كرست الطرق الصوفية ثقافة الإسلام الشعبي المختلط في الأوساط التي تجذرت فيها، والتي كانت مرتبطة بطقوس وعادات منافية لتعاليم الإسلام القويم، ومن خلال المتون الصوفية المحلية يتضح لنا هذا التصور بشكل جلي، وكمثال عن ذلك النصوص التي خلفها الحاج عمر الفوتي التي نفهم منها أن الإسلام أصبح مرادفا للتصوف ببلاد السودان خلال القرنين ١٨ و ١٩ م (Sami, 2001, p. 252).

٣. وصول الطريقة التجانية إلى بلاد السودان الغربي

لعبت قبيلة إِدَاوْعْلِي دورا مهما في اشعاع الطريقة التجانية بالسودان الغربي، فأصول هذه القبيلة مرتبط بالولاية والصلاح، وحسب بعض المصادر فكل الذين تأثروا بهذه الطريقة و ساهموا في نشرها ينحدرون جِينْيالوجيًّا من هذه القبيلة وقد كان "محمد الحافظ" أحد أعمدة هؤلاء ففي اثناء زيارته للديار المقدسة التقى هناك بعلي حرازم برادة الذي أدله على مدينة فاس التي تأوي شيخ الطريقة التجانية، وبعد لقائه بالشيخ أذن له في الطريقة وعينه مقدما لها وعن طريق هذه الحلقة ومنذ سنة ١٨٣٠ ،وهي السنة التي تؤرخ لوفاة الحافظ الشنقيطي، سيتولى "مولود فال" مهمة نشر الطريقة ومنهم كذلك ألفا "مايورو ويلي" و"عبد الكريم الناقل" عالم فُوتاغَالون وخلال هذه المرحلة ستصل الطريقة التجانية إلى ضفاف نهر السينغال بل أن العديد من القرى حملت اسم فاس تيمنا بأحمد التيجاني، وخلال موسم الحج يحج التجانيون الأفارقة قبر "الحاج عمر توري" ومنه إلى مدينة فاس للتضرع بسيد أحمد التجاني قبل أن ينتهي بهم المطاف إلى مكة والمدينة، والملاحظ أن العائلات العالمة بالسودان الغربي لعبت دورا كبيرا في إشعاع هذه الطريقة بالإضافة إلى التجار والاعيان مما ساهم في التأليف المحلي حول التجانية ككتاب "الرماح" للحاج عمر توري، كما أن الفضل يعود في نشر الطريقة إلى تعدد فروع الزوايا ويمكن الحديث عن ثلاثة فروع هي:

١. الفرع العُمَري نسبة للشيخ الحاج عمر تال.
٢. الفرع المالكي نسبة إلى الحاج مالك سي.
٣. الفرع النِّيَّاسي نسبة إلى بيت الحاج إبراهيم نياس.

كان لمحمد الحافظ العلوي دورا كبيرا في إرساء دعائم الطريقة التجانية والثقافة العربية بدول إفريقيا جنوب الصحراء وبخاصة دولة السينغال، فقد أخذ ورد هذه الطريقة من مؤسسها سيدي أحمد

التجاني الذي أذن له بها وسمح له بتلقين أوردها بمنطقة شنقيط وقبل وفاته سنة ١٨٣٠ تخرج على يده مجموعة من المريدين كان أبرزهم مولود فال الذي كشف للحاج عمر الفوتي أسرار هذه الطريقة هذا الأخير ارتبط اسمه بشكل كبير بالطريقة التجانية وفي عهده سميت دولة السينغال بالإمبراطورية التجانية التي قادت الجهاد ضد الفرنسيين خلال فترة الاستعمار، والملاحظ ان التجانيين كانوا يطلقون على قراهم اسم مدينة فاس تيمنا بالشيخ أحمد التجاني.

لقد مكنت التجانية الأفارقة من التعرف على المبادئ الصحيحة للإسلام سيما وأن هذه الأخيرة عمادها الكتاب والسنة والمذهب المالكي الخالي من التعصب، وهو ما يبرره الانتشار المكثف لدور القرآن والزوايا والكتاتيب. ولم يكن هذا بالأمر الهين لولا شحذ همم الأفارقة لمواجهة التطرف والمسيحية المتمثلة في التبشير والوثنية ومقاومة النفوذ الاستعماري، وحسب مصادر اصيلة فقد قدر العدد الإجمالي لجيش الحاج عمر الفوتي بحوالي إثنى عشر ألف مقاتل انتقلوا إلى زهاء ثلاثين ألفا، وقد ظلت الأمور على ماهي عليه إلى حين وفاة هذا الزعيم عام ١٨٦٤.

يمكن القول إن الطريقة التجانية لعبت دورا محوريا؛ أولا في نشر الإسلام القويم وثانيا في إشعاع اللغة العربية وثقافتها، فعلى انقاض أحمد التجاني والحافظ العلوي الحاج عمر الفوتي لمع نجم علماء أفارقة ساهموا بشكل ممتاز في نشر تعاليم الدين الإسلامي السمحة في سينيغامبيا عموما وغرب إفريقيا خصوصا، وهم مختار بنداسي، خال الحاج مالك سي، مؤسس الزاوية التجانية في تواون، والشيخ عبد الله نياس الذي ربطته بفقهاء المغرب علاقات وطيدة وبخاصة أثناء اقامته بالمغرب سنة ١٩١١.

الخاتمة

ختاما لما سبق يتضح أن انتشار الإسلام بغرب إفريقيا مكن من اشعاع اللغة العربية على نطاق واسع، كما أن هذه الأخيرة مكنت الأفارقة من كتابة تاريخهم الذي ظل شفويا لأمد بعيد مما يطرح معه إشكالية حفظ الذاكرة الجماعية، كما أن التصوف المغربي وبخاصة التجاني زاد من تعلق الأفارقة باللغة العربية وحاولوا استيعاب قواعدها نحوا وإعرابا ورسما، وبالرغم من المحاولات الطائشة للاستعمار الفرنسي والإنجليزي الرامية على طمس معالم هذه اللغة إلا أن تعلق الأفارقة بها باعتبارها لغة القرآن زاد من انتشارها على نطاق واسع وماتزال كذلك إلى يومنا هذا، كل هذا كانت له نتائج إيجابية أسهمت في إنتاج أدب إفريقي أصيل يصور واقع إفريقيا بجميع أبعاده؛ بما في ذلك النزاع مع القوة المهيمنة على القارة، والنزاعات الداخلية، ولقد كان للمغاربة الدور الحاسم في بلورة هذا الآداب ومن تم بناء الحضارة الإنسانية والتقدم الإنساني كما كان لهم دورا إيجابيا في بناء النهضة العلمية، والثقافية، والأدبية، ولعل القارة الإفريقية تبقى هي المستفيد الأول من الثقافة العربية في وقت كان الأفارقة يشعرون أن التطور والتحضر رهين بتعلم هذه اللغة في جميع مستوياتها؛ ومن خلال ادبهم وحياتهم الخاصة برهن الأفارقة أنهم اقتبسوا من الحضارة العربية الشيء الكثير. واليوم وفي إطار سياسة الدولة المغربية الرامية على التنمية جنوب ــ جنوب من خلال ضخ رؤوس أموال مغربية والاستثمار في هذه القارة لتنميتها وإحيائها ورد الاعتبار لها

يسعى المغرب إلى الاعتزاز بعلاقاته التاريخية مع القارة السمراء التي ينسجها خيط رابط هو الإسلام واللغة العربية والتاريخ المشترك.

المراجع

al-Azmī, A. (2000). *al-Ṭarīqah al-tījānīyah fi al-Maghrib wa-al-Sūdān al-gharbī khilāl al-qarn al-tāsiʻ ʻashar al-Milādī*. n.p.: al-Mamlakah al-Maghribīyah wa-Wizārat al-Awqāf wa-al-Shuʼūn al-Islāmīyah.

al-ʻAlawī, ʻA. ʻA. (1999). *Taʼthīr bilād al-Maghrib ʻalá ḥaḍārāt al-Sūdān al-gharbī* (Doctoral dissertation, Faculty of Arts and Social Sciences, Sais, Morocco).

Marty, P. (1922). *Études sur l'Islam en côte d'ivoire*. Paris: Éditiosn Ernest Leroux.

al-Manūnī, M. (1973). *Maẓāhir yaqẓat al-Maghrib al-ḥadīth* (Vol. 1). Rabat: Maṭbaʻat al-Amnīyah.

Samī, S. (2001). *al-ʻUlamāʼ wa-mujtamaʻ al-Sūdān al-gharbī khilāl al-ʻaṣr al-Iskī 1493–1591 M* (Doctoral dissertation, Université Hassan II, Casablanca, Morocco).

al-Shukrī, M. (1999). *al-Islām wa-al-mujtamaʻ al-Sūdānī Mamlakat Mālī 1230–1430 M*. Abu Dhabi-UAE: Manshūrāt al-Majmaʻ al-Thaqāfī.

al-Shukrī, A. (2010). *al-Dhākirat al-Ifriqīyah fī ufuq al-tadwīn ilá ghāyat al-qarn 18 M: Numūdhaj bilād al-Sūdān* (Doctoral dissertation, Mohammed V University, Souissi, Rabat, Morocco).

Trincaz, J. (1981). Colonisastions et religions en Afrique noire: L'exemple de ziguinchor. *Archieves de Sciences Sociales des Religions, 52*(2), 300–301.